Journal of Alasmarya University
Volume 15, December 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الخامس عشر، ديسمبر 2010

المنهج الواقعي في دراسة قضايا الإيمان

رسائل بديع الزمان النورسي أنموذجا

د. بوكاري كندو*

« إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الإسلامية ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها والتي تدل عليها كناية، فهي إذن ليست حكايات خيالية وإنما حقائق صادقة » (النورسي، الكلمات، الكلمة 10، ص 47).

تقديم

يقوم بناء الدين على أسس ثلاثة متلازمة وهي العقيدة والشريعة والأخلاق، فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة، والأخلاق ثمرة لهما، وعلى هذا كانت الكلمة الجامعة لرسول الإنسانية محمد ﷺ « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] فإذا كانت الشريعة متمثلة في الجوانب التعبدية من الدين، فإن هذه الجوانب

* الجامعة الإسلامية، النيجر.

1- البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تح. محمد عبدالباقر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414 هـ-1994م، 191/10، محمد بن سلامة القضاعي، مسند الشهاب، تح. حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407 هـ-1986م، 192/2، ح. رقم 1164، الحكيم الترمذي، محمد بن على، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تح. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، 43/4، السيوطي، عبدالرحمن، الجامع الصغير، تح. محمد عبدالرؤوف المناوي، دار طائر العلم جدة، ص 206.

متوقعة على معرفة المعبود، ويشير النورسي[2] بنظره الثاقب إلى هذا المعنى في مقدمة رسالته (الآية الكبرى)[3] أثناء تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته، كما أن وظيفة فطرته، وفريضة ذمته، هي معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعانا ويقينا[4].

ومن هنا كان المقصد الأساس لرسالات الأنبياء قاطبة هو إيقاظ العقول والقلوب إلى عقيدة التوحيد وترسيخها في النفس باعتبارها فطرة الله التي فطر الناس عليها قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

وهذا هو المنهج الرباني الذي تلقاه المسلمون بالإذعان والتسليم عن رسولهم الأمين وحيا معصوما من قبل رب العالمين.

2- هو بديع الزمان سعيد النورسي، ولد سنة 1294 هـ-1877م بقرية (نورس) التابعة لناحية (إسباريت) المرتبطة بقضاء (خيزان) من أعمال ولاية (بتليس) بتركيا، من أسرة اشتهرت بالعلم والتقوى. عرف بحدة الذكاء وكان على الطريقة النقشبندية رغم تعاطفه الشديد مع الطريقة القادرية، وكان له حظ وفير من علوم الدين والعلوم الحديثة. ترك عددا كبيرا من الرسائل جمعت تحت اسم (كليات رسائل النور) نقلها إلى العربية د. إحسان قاسم الصالحي. وقد كتب جلها في منفاه بـ (بارلا)، وتضم تسعة أجزاء وهي: الكلمات (33 رسالة)، والمكتوبات (33 رسالة)، واللمعات (30 رسالة)، والشعاعات (15 رسالة)، وإشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (ألف بالعربية)، والمثنوي العربي النوري (12 رسالة، ألف بالعربية)، والملاحق في فقه دعوة النور (ملحق بارلا، وملحق قسطموني، وملحق أميرداغ)، وصيقل الإسلام (آثار سعيد القديم، وتضم 8 رسائل)، وسيرة ذاتية. وقد ظلت رسائل النور تنشر بطريقة الاستنساخ اليدوي مدة عشرين سنة، ولم يتيسر لها أن تجد طريقها إلى المطابع إلا بعد سنة 1956م باستثناء رسالة الحشر التي طبعت خفية في استانبول بواسطة أحد طلاب النور. توفي النورسي في 25 رمضان 1379هـ الموافق 1960/3/23م، لا يعرف مكان قبره. راجع النورسي، سيرة ذاتية، إحسان قاسم الصالحي، الرجل والإعصار: سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ-2008 مسيحي.

3- وردت هذه الرسالة في الشعاع 7 ضمن الشعاعات.

4- النورسي، الشعاعات، الشعاع 7، ص 135.

حقيقة المنهج الواقعي

لقد قام علماء الإسلام بعد ختم النبوات بنبوة محمد ﷺ بمهام التصحيح لكل ما يخالف بناء الدين في ذات المسلم في دائرتي التكاليف الإيمانية والتكاليف العملية، بمناهج وأساليب تتفاوت قوة وشمولا، استعانة بما يتيحه العصر من إمكانات.

ونقصد بالمنهج في مجال المعرفة جملة الوسائل والأساليب والذرائع المتخذة لاكتساب فكرة ما أو إيصالها إلى الغير.

ولا يخفى ما للمنهج من أهمية، إذ يتوقف نجاح أي مشروع نظري أو عملي – إلى حد بعيد– على سلامة المنهج المتبع بالإضافة إلى سلامة المضمون الفكري، ولذلك اعتني النورسي بقضية المنهج أيما اعتناء فقال: إن مقصودنا ومطلوبنا هو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: 255]، فمن بين براهينه التي لا تعد نورد هنا أربعة منها:

البرهان الأول: هو محمد ﷺ.

البرهان الثاني: هذا الكون وهذا الإنسان الأكبر، ذلك الكتاب الكبير المنظور.

البرهان الثالث: هو القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه وهو الكلام المقدس[5].

البرهان الرابع: الوجدان الحي، أو الفطرة الشاعرة، الذي يمثل البرزخ ونقطة اتصال عالمي الغيب والشهادة. فالفطرة الشاعرة أو الوجدان نافذة إلى العقل ينشر منها شعاع التوحيد[6].

وتعني الواقعية في المنهج التعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود المستيقن والأثر الإيجابي، لامع تصورات عقلية مجردة ولا مع مثاليات لا أثر لها في عالم الواقع، وبالتالي فإن بين الواقعية والمادية فرقا لأن الفكر المادي لا يؤمن إلا بالمحسوس الذي يكون في متناول حواس الإنسان الخمس.

5– للنورسي تعريف دقيق للقرآن الكريم نقتبس منه ما يلي: «هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير، والترجمان الأبدي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية، ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة ... كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر ... فهذا الكتاب السماوي أشبه ما يكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب» النورسي، الكلمات، الكلمة 25، ص 422، وانظر، الكلمة 19، ص 264.

6– النورسي، المثنوي العربي النوري، ص 421، وانظر، الكلمات، الكلمة 19، ص 254، النورسي، الملاحق، أمير داغ 1، ص 64.

وتؤكد (رسائل النور) على قضية معرفة الله وتقف عليها بإمعان، وترسم السبل المؤدية بنا إلى معرفته ﷻ ويشير النورسي في مواضع مختلفة إلى أن المنهج الذي قامت عليه رسائله هو منهج القرآن الكريم، فإن «رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلك مقتبس من الإعجاز المعنوي للقرآن يخرج زلال معرفة الله من كل شيء، فيستفيد السالك في رسائل النور في لحظة مالا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة، وذلك سر من أسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد ويدفع به هجوم أهل العناد»(7).

ويزيد النورسي توضيحا لخصوصيات منهجه في دراسة قضايا الإيمان بعقد مقارنة بينه وبين المناهج المتبعة لدى أتباع الأديان الأخرى فيقول: «نحن معاشر المسلمين خدام القرآن نتبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا حقائق الإيمان، لسنا كمن ترك التقلد بالبرهان تقليدا للرهبان كما هو دأب أتباع سائر الأديان»(8).

فلم تنح هذه الرسائل نحو القضايا المجردة الجامدة، والمتتبع لما ورد فيها يدرك أن الواقعية المنهجية كانت طابعها الأساس، لم ترد فيها عرضا وإنما كان ذلك مقصودا لم يغادره المؤلف لحظة ولم يبتعد عنه قيد أنملة.

وإذا نحن قلبنا النظر فيما ورد في الرسائل تبين لنا أن المنهج الواقعي عند النورسي يتمثل في التعامل مع الحقيقة الإلهية متمثلة في آثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية، ويتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدها المحسوسة المؤثرة والمتأثرة، ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية متمثلة في الأناسي كما هم في عالم الواقع.

ويمكن أن نقول -إجمالا- إن المنهج الواقعي كما تتضح معالمه في (رسائل النور) يتضمن بعدين اثنين استرشادا بتوجيهات الوحي القرآني القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا

7- المثنوي، ص 32.

8- النورسي، صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص 495، ويقول: «أقسم بالقرآن العظيم ذي الأسلوب الحكيم، أنه ما ألقي النصاري وأمثالهم في وديان الضلالة نافخا فيهم الهوى إلا عزل العقل وطرد البرهان وتقليد الرهبان». صيقل الإسلام، محاكمات، ص 52، ويضيف في مكان آخر: «فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم أي رسائل النور إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضا مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية، فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية» النورسي، المكتوبات، المكتوب 28، ص: 459.

فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، وهما:

- البعد الآفاقي فـ «يشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسني، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة، ثم ينفذ إلى دائر النفس، فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغرة في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب أقرب طريق إليه تعالى، ويشاهد أن القلب حقا مرآة الصمد، فيصل إلى مقصوده، ومنتهى أمله»(9).
- البعد الأنفسي وذلك بالانطلاق من «النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج، ويحدق في القلب مخترقا أنانيته، ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة، ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منورة بنور قلبه، فيصل سريعا، لأن الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس أكبر في الآفاق»(10).

توظيف النورسي للمنهج الواقعي في دراسة قضايا الإيمان

إن شأن كل قضية من قضايا الدين المنزل، لا يقصد منها تقريرها من الناحية النظرية كي يقنع بها من يسير تحت لوائها أو يفحم من يعارضها أو يحاول التشويش عليها فحسب، وإنما يقصد من ورائها بدرجة أولى أن تتحول الدعوة إلى كيان حي تشاهد مبادئه وقواعده النظرية في صورة كائنات محسوسة متحركة، وفي الفقرات التالية نرصد طريقة توظيف النورسي للمنهج الواقعي في دراسته لقضايا الإيمان من خلال رسائله، وذلك في بعديه الآفاقي والأنفسي.

البعد الآفاقي

إن إثبات وجود الكون خطوة ضرورية قبل الاستدلال به على حقائق الإيمان، وعليه كان النورسي حريصا على إثبات ذلك الوجود، فأكد أن وجود الكون ثابت بالآيات القرآنية، وذلك انطلاقا من التفريق بين نوعين من الوجود وهما الوجود الإلهي

9- المكتوبات، المكتوب 29، ص 575.

10- المصدر نفسه، ص 575.

ووجود ما سوى الله، أي جميع المخلوقات كما يفيده قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] بدلالة العموم المستفادة من حذف المفعول به من فعل (خلق) فالكون في فكر النورسي كل مركب من الكائنات الحية والميتة: من الحيوانات والطيور والنباتات، من السماوات والأرض، والنجوم والكواكب والأجرام والأبعاد والأشكال والأوضاع والحركات والآثار والقوى والطاقات. والظواهر الكونية هي هذه الحياة والموت، والليل والنهار، والنور والظلام، والمطر والبرق والرعد، والأطوار والأحوال.

الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجي الذي ألفه الإنسان الذي يعتبر –هو نفسه– عنصرا من عناصره لئن كان يشترك معه في كثير من أحواله فإنه لا يتساوى معه بل يعلو عليه قيمة وشأنا بالإيمان[11]، والكون مسخر له كما في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]، فكان الحديث عنه خاصا. وقد عبر عن الكون في السياق القرآني في بعض المواضع بالآفاق كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

يختلف النورسي في موقفه من الكون عن التصور الذي يعتبر الكون عدما أو شبيها بالعدم على النحو الذي نجده في الفكر الصوفي أو أصحاب وحدة الوجود ووحدة الشهود «لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات ولا إلى سجنها، حيث إن أهل وحدة الوجود توهموا الكائنات عدما، فقالوا: لا موجود إلا هو، لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي، وكذا أهل وحدة الشهود حيث سجنوا الكائنات في سجن فقالوا: لا مشهود إلا هو، للوصول إلى الاطمئنان القلبي والحضور الدائمي»[12].

كما يتعارض مفهومه للكون مع المفاهيم التي ترى الكون فكرة مجردة عن الشكل والقالب، أو هيلولي (Hyle) أي مادة أولية غير مشكلة، أو صورة أو مثالا في العقل المطلق، على النحو الذي نجده في بعض تيارات الفلسفة اليونانية كالأرسطية والأفلاطونية.

لقد أولى النورسي المعرفة الكونية أهمية كبيرة سيرا على المنهج القرآني الذي

11– انظر، المثنوي، ص 310، 363، 364، الكلمات، الكلمة 23، ص 348، 352، 355.

12– المكتوبات، المكتوب 29، ص 597، وانظر، المكتوب 26، ص 425، الكلمات، الكلمة 26، ص 561، الكلمة 29، ص 579.

يحث على الانطلاق من الآفاق للعروج إلى عالم الإلوهية، فتميزت هذه المعرفة عند المسلمين وافترقت عن مثيلتها في الأفكار المادية الصرفة بخاصية جوهرية هي بعدها الغيبي، ونقصد بذلك تجاوز المستوى المادي الخالص والنفاذ إلى الدلالة الغيبية للمحسوسات. وفي هذا الإطار يتجلي دور العقل والتفكر الذي ركز النورسي على بيانه، فمما ورد في معرض حديثه عن قيمة العقل أن «الإنسان –بما منح من عقل وفكر– ذو علاقة فطرية وثيقة بالماضي والمستقبل فضلا عما هو عليه من زمان حاضر حتى إنه يتمكن من أن يذوق لذائذ تلك الأزمنة ويشعر بآلامها، خلافا للحيوان الذي لا تعكر صفو لذته الحاضرة الأحزان الواردة من الماضي ولا المخاوف المتوقعة في المستقبل، حيث لم يمنح الفكر»[13].

وبالفعل، فإن عالم الوجود المادي بأسره لوحة تفكر في عين النورسي فكان يحب الطبيعة ويتعلق بها، فيجيل فيها نظره متأملا، وقد بلغ من حبه للطبيعة أنه كان يحصي عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق، بل وحبات عنقود واحد منها، ويحصي عدد أغصان شجرة اللوز وعدد فروعها، بل حتى عدد ما في أزاهيرها من خيوط. إنه يتأمل في كل ذلك ليدرك آيات الخلق ودلالتها على الموجد[14]، والقصد من خلق الإنسان هو القيام بوظيفة التفكر، فهو يطالع العالم في شكل لوحتين ودائرتين «إحداهما: دائرة ربوبية في منتهى الانتظام وغاية الروعة والهيبة ولوحة صنعة بارعة الجمال وفي غاية الإتقان، والأخرى: دائرة عبودية منورة مزهرة للغاية، ولوحة تفكر واستحسان وشكر وإيمان في غاية الجامعية والسعة والشمول، بحيث إن دائرة العبودية هذه تتحرك بجميع جهاتها باسم الدائرة الأولى وتعمل بجميع قوتها لحسابها»[15].

إن المناظر التي يوفرها الكون ليست أوهاما بل حقائق، لأن الذي يقال هو ما يجري حولنا من الأحداث في كل لحظة سواء شاهدناها أو لم نشاهدها، لكن الأعين العضوية غير كافية للإحاطة بهذا المنظر، لذا فإن القسم المتبقي من اللوحة سيتم بمساعدة قوة الخيال وبواسطة التفكر، فإن الحواس ليست قاصرة على الحواس الخمس

13– الكلمات، الكلمة 13، ص 160، وراجع عن أهمية العقل عند النورسي، صيقل الإسلام، محاكمات، 29، 46، 52، فمن أقوله في هذا الشأن: «إذا تعارض العقل والنقل، يعد العقل أصلا ويؤول النقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلا حقا» ص 29.

14– راجع، الكلمات، الكلمة 22، 337، الكلمة 29، ص 606.

15– المصدر نفسه، الكلمة 18، ص 252، وانظر، المثنوي، ص 310.

المعروفة التي لا يتجاوزها الماديون أو الطبيعيون[16]، وإنما للإنسان حواس أخرى كثيرة مثل حاستي السوق والشوق[17].

توفر لنا رسالة (الآية الكبرى) أنموذجا واضحا للتفكر الآفاقي، وخاصة في مقدمتها التي هي مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، وبرهن النورسي فيها على عمق معرفة بالعلم الكوني، وكان ذا بصر ثاقب وبصيرة نافذة فتمكن من تصوير الكون في مظاهره المتعددة بريشة الفنان الماهر، يشعر كل شخص أمامه بجمال أخاذ وتأثير عميق، كما تمكن من إبراز المعاني العلمية التي اعتمد عليها في مناقشة الفلاسفة والماديين والطبيعيين، فإن « كل من يأتي ضيفا إلى مملكة هذه الدنيا ويحل في دار ضيافتها، كلما فتح عينيه ونظر رأى مضيفا في غاية الكرم، ومعرضا في غاية الإبداع، ومعسكر تدريب في غاية الهيبة، ومتنزها جميلا في غاية الروعة، ومشهرا في غاية الإثارة للشوق والبهجة، وكتابا مفتوحا ذا معان في غاية البلاغة والحكمة »[18].

إن الكون في بنيته العامة منظم تنظيما بديعا، ومنطو على معان جمة وفيرة بحيث يبدو على صورة (قرآن جسماني)[19]، وقد أعد ونظم بشكل تجد فيه جميع الأسئلة والاستفسارات أجوبة شافية لها. وتثبت شهادته العظيمة على الوجود الإلهي والوحدانية حقيقتان في نظر النورسي:

أولاً: حقيقة الحدوث والإمكان التي استدل بها المتكلمون ولم ينكرها النورسي وإن كان توسع في توضيحها[20]، فبناء على أن العالم وكل ما فيه في تغير وتبدل، فهو حادث

16- يعرفهم بأنهم « الذين انحدرت عقولهم إلى عيونهم فلا يرون إلا المادة » الكلمة 30، ص 655.

17- انظر، المثنوي، ص 431.

18- الشعاعات، الشعاع 7، ص 141.

19- راجع، الكلمات، الكلمة 22، ص 310-324.

20- يعتبر النورسي أن مسالك المتكلمين لا تورث القناعة والاطمئنان مثل مسلك القرآن الكريم، وذلك لأنهم « يحفرون عيونا في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة؛؛ أما الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذة تدل على الصانع » الكلمات، الكلمة 25، ص 514، وانظر، المكتوبات، المكتوب 26، ص 424، 425.

وفان، ولأنه كذلك فلا بدله من محدث، ويستحيل الدور[21] والتسلسل[22]، فيلزم وجود واجب الوجود[23].

أما الإمكان فهو (متساوي الطرفين) أو (عدم اقتضاء الذات الوجود والعدم)[24] أي تساوي العدم والوجود بالنسبة إلى شيء ما، فقد استولى هو الآخر على الكون، إذ نشاهد أن كل شيء يرسل إلى الدنيا بذاتية خاصة وبشخصية متميزة، وبصفات خاصة، وبأجهزة ذات مصالح وفوائد، والحال أن إعطاء تلك الخصوصية لتلك الذات وتلك الماهية يكون ضمن إمكانات غير محدودة، الأمر الذي يوجب وجود من يميز الذوات بخصوصياتها[25].

ثانياً: حقيقة التعاون بين الموجودات، وذلك فيما نشاهده فيما هو خارج عن قدرة المخلوقات الساعية لحفظ وجودها ومهامها وصيانة حياتها -إن كانت حية- وتحقيق وظيفتها في ظل الأحوال المضطربة، مثل مد السحاب للنباتات، ومساعدة النباتات للحيوانات، ومعاونة الحيوانات للإنسان، فإن « إظهار الأشياء المتعاونة -وهي جامدة وبلاشعور ولا شفقة- أوضاعا تنم عن الشفقة وتتسم بالشعور فيما بينها دليل على أنها تدفع دفعا للإمداد والمعاونة فتجري بقوة رب ذي جلال، وبرحمة رحيم مطلق الرحمة، وبأمر حكيم مطلق الحكمة وهكذا فإن التعاون العام الجاري في الكون، والموازنة العامة السارية بكمال الانتظام، والمحافظة الشاملة، ابتداء من المجرات والسيارات إلى أجهزة الكائن الحي وأعضائه الدقيقة ... وأمثالها من الحقائق العظيمة جدا والشاهدة شهادة

21- الدور: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، ويسمى الدور المصرح كما يتوقف (أ) على (ب) وبالعكس، أو بمراتب ويسمى الدور المضمر كما يتوقف (أ) على (ب) و(ب) على (ج) و(ج) على (أ) الجرجاني، على بن محمد، التعرفيات، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 14705هـ، ص 140، أو تعريف شيء أو البرهنة عليه بشيء آخر لا يمكن تعريفه أو البرهنة عليه إلا بالأول صليبا، جميل المعجم الفلسفي، كلمة دور.

22- التسلسل: هو ترتيب متناهية. الجرجاني، المصدر السابق، ص 80، المناوي، محمد عبدالرؤوف، التعاريف، تح. د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1410هـ ص 175.

23- انظر، الكلمات، الكلمة 33، ص 825.

24- الجرجاني، المصدر السابق، ص 54.

25- راجع، الكلمات، الكلمة 33، ص 825، 828.

متناسبة مع عظمتها، تشكل الجناح الثاني لشهادة الكون على وجوده سبحانه ووحدانيته وتثبتها »[26].

ولئن كان الكون في كليته، وفي كل ذرة من ذراته، يحمل دلالة قاطعة على وجود الخالق ووحدانيته، وعلى إمكان الحشر والقيامة[27] فإننا نستطيع أن نبرز بعض الأوجه التي استقطبت اهتماما بالغا في التفكر الآفاقي عند النورسي رفقة الضيف السائح، وذلك في النقاط الآتية:

السماوات

ورد ذكر السماوات في كثير من آيات القرآن الكريم[28]، وذلك في معرض الدعوة إلى التأمل والنظر فيها لغايات عقدية، فالسماوات تضم ألوفا من الأجرام مرفوعة بلا عمد ولا سند، منها ما هو أكبر من أرضنا ألف مرة، وما هو أسرع انطلاقا من القذيفة، وهي تسير وتجري في سرعتها بلا مزاحمة ولا مصادمة كما تضم السماوات نجوما شبيهة بقناديل توقد بلا زيت دون انطفاء كل هذه المخلوقات العظيمة مسخرة في مهام معينة كاستسلام الشمس والقمر لأداء وظائفهما دون إحجام أو تلكؤ، وكل هذه السيارات الضخمة التي تملك قوى هائلة تخضع منقادة مطيعة لقانونها دون تجاوز أو انحراف ثم إن وجه السماء يبدو صافيا نقيا طاهرا، وبالتالي ظهرت الربوبية ووجب الإقرار بالوحدانية[29].

الفضاء

يطلق على الفضاء أيضا اسم الجو وهو محشر للعجائب ومعرض للخوارق. فمن مكونات الفضاء السحاب[30] الذي علق بين السماء والأرض يسقي روضة الأرض سقيا يتفجر حكمة ورحمة، ويمد ساكنيها بالماء الباعث للحياة، ملطفا به شدة الحرارة ومع أن ذلك السحاب الثقيل الضخم يقوم بوظائف كثيرة فإنه يختفي ويتبدد فورا بعد

26- الشعاعات، الشعاع 7، ص 185، وانظر، النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 154، الكلمات، الكلكة 30، ص 644.

27- راجع على سبيل المثال، الكلمات، الكلمة 10، ص 56، 85، 87.

28- وردت كلمتا (سماء) و(سماوات) في 310 موضعا في القرآن الكريم.

29- انظر، الشعاعات، الشعاع 7، ص 143، الكلمات، الكلمة 33، ص 807.

30- وردت هذه الكلمة تسع مرات في القرآن، منها قوله ﷻ: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12].

أن ملأ أرجاء الجو. ولكن ما أن يتسلم أمرا بإنزال المطر حتى يجتمع ويملأ الجو في وقت قصير.

ومن ظواهر الجو الجديرة بنظر الاعتبار أيضا الرياح[31] التي تجول فيه، فالهواء يستخدم في وظائف كثيرة في منتهى الحكمة والكرم استخداما، فتؤدي كل ذرة في ذلك الهواء الجامد -وهي لا تملك شعورا- خدماتها وتنفذها بكل انتظام ودقة دون توان في شيء منها، فتدخل هذه الذرات في استنشاق جميع أحياء الأرض للهواء وسوق السحب وإدارتها وتسيير السفن وجعلها تمخر عباب البحار وتسيح فيها، ونقل الأصوات والاتصالات اللاسلكية، وتوفير المواد الضرورية لذوي الحياة كالحرارة والضوء والكهرباء، والتوسط لتلقيح النباتات، وغير ذلك من المنافع[32].

ومن الظواهر الجوية أيضاً المطر[33]، فهذه القطرات اللطيفة البراقة العذبة التي أرسلت تزخر بهدايا رحمانية، ولعل في هذا يكمن السر في إطلاق لفظتي الغيث[34] والرحمة[35] على المطر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: 28] فهذا الماء الذي هو جماد بسيط لا يملك شعورا، يستخدم في أعمال حكيمة، وبخاصة في الإحياء والتروية، وهو المركب من مادتين بسيطتين جامدتين خاليتين من الشعور هما الهيدروجين والأوكسجين[36].

ومن ظواهر الجو كذلك البرق[37] والرعد[38] اللذان يستخدمان في أمور عجيبة

31- وردت كلمتا (ريح) و(رياح) كظاهرة جوية في سبعة وعشرين موضعا في القرآن، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ عَادٌۢ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6].

32- انظر، الكلمات، الكلمة 13، ص 181، 182، 183، النورسي، الملاحق، أمير داغ2، ص 405.

33- وردت هذه الكلمة سبع مرات في القرآن الكريم، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: 173] و[النمل: 58].

34- وردت هذه اللفظة في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم: لقمان (31): 34، الشورى (42): 28، الحديد (57): 20.

35- وردت هذه الكلمة بمعنى المطر في موضعين في القرآن: الروم (30): 46، الشورى (42): 28.

36- الصيغة العلمية للماء هي (H_2O).

37- وردت هذه الكلمة في ستة مواضع في القرآن الكريم، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: 43].

38- وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن الكريم وهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ =

غريبة، فهاتان الظاهرتان الجويتان تخبران عن قدوم الغيث فتبشران المعوزين الملهوفين، فإن إنطاق الجو المظلم بغتة بصيحة هائلة تزجر وتجلجل، وملء الظلام الدامس بنور يكاد يذهب بالأبصار وبنار ترعب كل موجود، وإشعال السحب العظيمة المحملة بالماء تثبت وجود الله ﷻ ووحدانيته(39).

كرة الأرض

تظهر كرة الأرض كسفينة عظيمة حاملة لأنواع من الكائنات الحية الحاملة لجميع أرزاقها ومتطلباتها بالشفقة والحكمة، وكذلك المخلوقات غير الحية، تخط بحركتها دائرة تحصل بها الأيام والسنون والفصول، فتمخر عباب الفضاء في سياحة حول الشمس بكمال الموازنة والانتظام، وكل صحيفة من صحائفها تعرف ربها بآلف آياتها(40) وقد استقطب اهتمام النورسي جمال الربيع وسحره الأخاذ، فإذ هو بما يشاهد فيه شهادة على إمكان الحشر، فهو يجسد إيجاد ذوي الحياة وإدارتها في هذا الفصل، بوجود أفراد غير محدودة لآلف من الأنواع «تنفتح صورها وتنبسط من مادة بسيطة بمنتهى الانتظام، وتربى بمنتهى الرحمة، وتنشر في الأرجاء بمنتهى السعة وتمنح بذور قسم منها جنيحات رقيقة للطيران في غاية الإعجاز، وإنها تدار بمنتهى التدبير»(41)، وكان ذلك تصديقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: 50].

البحار والأنهار العظيمة

إن البحار التي تتماوج بحيوية وتتلاطم بشدة دوما، والتي شأنها التشتت والإغراق، قد أحاطت باليابسة، فهما تسيران معا في منتهى السرعة وتجريان في سنة واحدة ضمن دائرة محددة، ورغم ذلك فهي لا تتفرق ولا تنسكب ولا تستولي على جارتها اليابسة.

وتحمل هذه البحار في جوفها كائنات في غاية من التنوع والجمال، تجد أرزاقها وأقواتها في انتظام من رمل بسيط ومن ماء أجاج، كما تضم في جوفها غرائب أخرى.

وإذا نظرنا إلى الأنهار رأينا أن فيها منافع ومصالح، ولها خدمات ووظائف، وما

= ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ [البقرة: 19]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الرعد: 13].

39- انظر، الشعاعات، الشعاع 7، ص 147.

40- راجع، المصدر نفسه، الشعاع 7، ص 149.

41- المصدر نفسه، الشعاع 7، ص 148، وانظر، الكلمات، الكلمة 10، ص 56، 85، 87.

تنتجه من مصاريف وما ترده من موارد محسوب بحكمة واسعة، وبرحمة عظيمة، وتثبت جميع الجداول والينابيع والسيول والأنهار العظيمة وجود الله ﷻ ووحدانيته[42].

الجبال

إن وظائف الجبال[43] الكلية وفوائدها العامة هي من العظمة والحكمة مما يحير العقول، فبروز الجبال واندفاعها من الأرض يهدئ هيجان الأرض ويخفف من غضبها وحدتها الناجمة من تقلباتها الباطنية، ويدعها تتنفس مستريحة بفوران تلك الجبال ومن خلال منافذها كما أن الجبال أوتاد لسفينة الأرض تثبتها وتحفظ توازنها[44].

وتوجد في جوف الجبال أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التي يحتاج إلى كل منها ذوو الحياة، قد ادخرت بحكمة، وأحضرت بكرم، وخزنت بتدبير، وفي ذلك دلالة على وجود الله ﷻ ووحدانيته[45].

الأشجار والنباتات

إن الناظر إلى الأشجار والنباتات يلحظ وكأنها عقدت فخما رائعا وشكلت حلقة مهيبة للذكر والشكر، وهي تنطوي على حقائق تدل على أنها جميعا تؤدي شهادتها مسبحة، ومنها: حقيقة الإنعام والإكرام المقصودين، والإحسان والامتنان الإراديين، التي يحس معناها إحساسا ظاهرا في كل شجر ونبات، وحقيقة التمييز والتفريق المقصودين بحكمة، والتزين والتصوير الإراديين برحمة، هي واضحة حقيقة ومعنى، وحقيقة فتح صور المصنوعات غير المحددة، من حبوب معدودة متشابهة، ومن نوى محدودة متماثلة، واستنباتها في غاية الانتظام والميزان وبمنتهى الزينة والجمال، رغم أنه بسيطة جامدة ومختلطة بعضها ببعض كل هذا يؤكد حقيقة أن الله ﷻ موجود وواحد في ألوهيته، وأنه

42- راجع، الشعاعات، الشعاع 7، ص 151.

43- وردت كلمتا (جبل) و(جبال) في 40 موضعا في القرآن الكريم.

44- بين القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة منها: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7]، و﴿وَٱلْجِبَالَ ﴾ [النازعات: 32]، و﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ [الحجر: 19].

45- يقول النورسي في بيان هذه الحقيقة: «وكذا جعل الجبال الشوامخ مخازن احتياطية منتظمة ومستودعات مكملة لكنوز ضرورية لحياة الضيوف القادمين إلى مضيف الأرض ولسد حاجاتهم في المستقبل، يشير ويدل بل ويشهد على أن صانعا له هذا الكرم الواسع ومكرما وحكيما رؤوفا وقديرا ومربيا، لابد له خزائن أبدية لآلائه الأبدية في عالم أبدي لأولئك المسافرين الضيوف المحبوبين عنده» الشعاعات، الشعاع3، ص 57، وانظر، الشعاع 7، ص 152.

قادر على الإحياء يوم القيامة[46].

الطيور والحيوانات

عن جميع الطيور والحيوانات بأنواعها وطوائفها وأممها كافة تذكر متفقة كلمة التوحيد بلسان حالها ومقالها، كأن حواسها ومشاعرها وأعضاءها، وآلاتها، وأجهزتها، وقواها، كلمات موزونة منظومة، وكلام فصيح بليغ ويدرك المرء في جميع هذه الطيور والحيوانات جملة من الحقائق العظيمة الدالة قطعا على أنها تؤدي شكرها تجاه ربها بتلك الكلمات، وهي حقائق كلها تؤكد وجود الله ﷻ ووحدانيته، منها:

- حقيقة الإيجاد والإبداع، أي منح الروح، إيجاد من عدم بإرادة وحكمة، وإبداع بعلم وإتقان.
- حقيقة التمييز والتزيين والتصوير التي تتضح من تلك المصنوعات غير المحدودة التي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة متميزة في الوجود، وبأشكال مزينة جميلة متباينة.
- حقيقة فتح صور تلك الحيوانات غير المحدودة من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ومن قطرات محدودة، متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف، وذلك بانتظام كامل، وموازنة تامة[47].

ويجمل النورسي الملاحظات التي شاهدها في رحلته مع السائح فيظهر درس الإيمان من الكون في وضوح ودقة تعبير بقوله: لا إله إلا الله الواجب الوجود، الممتنع نظيره، الممكن كل ما سواه، الواحد الأحد، الذي دل على وجوب وجوده في وحدته هذه الكائنات، الكتاب الكبير المجسم والقرآن الجسماني المعظم والقصر المزين المنظم والبلد المحتشم المنتظم، بإجماع سوره وآياته وكلماته وحروفه وأبوابه وفصوله وصحفه وسطوره، واتفاق أركانه وأنواعه وأجزائه وجزئياته وسكنته ... وواردته ومصارفه، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة: الحدوث والتغير والإمكان، بإجماع جميع علماء علم الكلام، وبشهادة حقيقة تبديل صورته ومشتملاته بالحكمة والانتظام، وتجديد حروفه وكلماته بالنظام والميزان، وبشهادة عظمة إحاطة حقيقة: التعاون، والتجاوب، والتساند، والتداخل،

46- انظر، الشعاعات، الشعاع 7، ص 153، الكلمات، الكلمة 33، ص 823.

47- راجع، المصدر نفسه، الشعاع 7، ص 155.

والموازنة، والمحافظة، في موجوداته بالمشاهدة والعيان[48].

وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه واحـــد[49]

وإذا نحن تأملنا في مختلف المعاني الكونية التي كانت محل اهتمام النورسي أمكن حصرها في دليلين أساسين:

أولاً: دليل العناية

وخلاصته فيما عرضت في الخلقة من صنعة بلا قصور، ورعاية فوائد ذات حكمة كما يرينا نظام الكون المكمل، وإن الآيات التي تتحدث عن فوائد الأشياء للإنسان وسائر المخلوقات هي مواضع هذا الدليل[50]، مثل قوله ﷻ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3-4]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 32-34].

ثانياً: دليل الحدوث والاختراع

وخلاصته أن الكون حادث، حيث نشاهد في كل عصر وفى كل سنة بل في كل موسم عالما يرحل ويحط آخر مكانه، تمضى كائنات وتأتي أخرى، والأسباب الجامدة التي لا شعور لها لن تستطيع أن تكون موجدة المخلوقات التي يعتبر كل منها معجزة للقدرة، كما لا تستطيع الأسباب التي هي مخلوقة أن تخلق الكون وتجده من جديد، فالله القدير يوجد الأشياء من العدم ويجدد تلك العوالم الشاسعة من غير شيء مذكور[51]. والقرآن بآياته الباحثة عن الخلق والإيجاد يثبت هذا الدليل في أذهان الناس بجلبه النظر إلى المؤثر الحقيقي، مثل قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: 2-3].

48- الشعاعات، الشعاع 7، ص 186.

49- البيت لأبي العتاهية في ديوانه وينسب إلى الإمام على كرم الله وجهه، ونسبه ابن كثير في مقدمة تفسيره إلى ابن المعتز.

50- انظر، النورسي، صيقل الإسلام، محاكمات، ص 123-124.

51- انظر، الكلمات، الكلمة 33، ص 825، صيقل الإسلام، محاكمات، ص 124-127.

يتجلى من خلال هذه المعطيات براعة النورسي في الوصف ودقته في الملاحظة، فيحصل عنده رصيد كبير من المعرفة الآفاقية، استعان بها على مجادلة الماديين الذين يتلخص فكرهم في التأكيد على التلازم الضروري بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها، فالنباتات مثلا تقوم بنفسها بإنتاج غذائها فيما يسمى (التركيب الضوئي) ومضمونه أننا إذا أخذنا ورقة خضراء وسحقناها بين الأصابع وجدنا أن أصابعنا قد تلونت باللون الأخضر بفعل مادة الكلورفيل المؤلف من ذرات الكربون والهيدروجين والنتروجين والمغنيسيوم، يعمل كمصنع للأغذية، عبر مرحلتين:

- تبدأ المرحلة الأولى بأخذ الضوء من الشمس وسحب الماء من جذور النباتات فيتحقق بذلك إنتاج الهيدروجين والأكسيجين ومستودع الطاقة (ATP)، ثم يزفر إلى الجو الأكسجين الذي يعتبر ضروريا للأحياء.
- وتبدأ المرحلة الثانية بقيام مستودع الطاقة (ATP) مع الهيدروجين بسحب ثاني أوكسيد كربون –الذي يعتبر ساما بالنسبة إلى الإنسان– من الهواء، منتجا بذلك السكر الذي يستخدم جزء منه لإدامة حياة النباتات، أما الباقي فيستخدم لإنتاج النشأ والكربونات والبروتينات، وعليه يتم من جهة تنقية الهواء من السموم، وإنتاج الغذاء اللازم للإنسان والحيوان من جهة ثانية[52].

فالتركيب الضوئي يتم وفق عمليات معقدة تجرى بأقصر الطرق وأقلها كلفة، ومن دون وقوع أضرار، منتجة ألذ وأجمل ألوان الأغذية، وهذه النتائج والفوائد الجمة لا يمكن حدوثها بأي حال إلا بمشيئة وقصد، فيلزم أن يوجد تخطيط مسبق لها.

إذن فالنباتات المجردة من الإدارة والعلم والقدرة لا تقوم بنفسها بإنتاج غذائها، فهذه الفكرة تمت بصلة وثيقة إلى الفكر المادي الذي يزعم بأن الأسباب هي التي تصنع النتائج، لأنه يرفض مسبقا قبول وجود الخالق.

لقد استفادت كثير من التيارات الفلسفية من أجواء الحرية التي حلت بتركيا بإعلان المشروطية[53] عام 1908، وبقى بعض المثقفين[54] في هذه المرحلة ينتهجون

52– أعطيت جائزة نوبل للكيمياء لكافن (calvin) لمجرد كشفه نظام التفاعلات الكيماوية التي تحدث في المرحلة الثانية من عملية التركيب الضوئي، فإذا كان الأمر كذلك فما هي جائزة من أسس هذا المصنع الصغير.

53– المشروطية: هي إعلان النظام البرلماني في الدولة العثمانية، فأصبحت الوزارة بموجه مسؤولة أم =

نهج الهجوم على المعتقدات الدينية، ونقرأ هذا التحول فيما سجله كارل بوبر (Karl Popper)[55] بقوله: إن الثورة الطبيعية أخذت موقفا مضادا للإله وجعلت الطبيعة مكان الإله، وخارج ذلك بقي كل شي على ما كان عليه، وبذلك ترك العلم اللاهوتي مكانه للعلم الطبيعي، والقوانين الإلهية مكانها لقوانين الطبيعية، وإرادة وقوته لإرادة وقوة الطبيعية، وفي النهاية ترك النظام الإلهي مكانه لخيارات الطبيعة، وأخذت الحتمية الطبيعية مكان الحتمية اللاهوتية، يعنى أن قدرة الطبيعة على كل شيء ووحدة كل شيء أخذت مكان قدرة الله على كل شيء ووحدانيته[56].

وقد بذل النورسي جهدا كبيرا في بيان تهافت هذا الفكر في أسسه وغاياته في مواضع مختلفة من رسائله[57]، ومن ذلك تعليقه على الآيات الكريمة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: 24-32] بقوله: قد تبين الآية غايات المسبب وثمراته لتعزل السبب الظاهري وتسلب منه قدرة الخلق والإيجاد، وليعلم أن السبب ما هو إلا ستار ظاهري، ذلك لأن إرادة الغايات الحكيمة والثمرات

=

البرلمان وليس أمام السلطان، كما أن صلاحية تشريع القوانين من اختصاص البرلمان، وقد أعلن السلطان عبدالحميد الثاني المشروطية مرتين، الأولى مع بداية حكمه وهي المشروطية الأولى في 19 مارس 1877 ونظرا إلى استغلال نواب الأقليات غير المسلمة لهذا المجلس وارتباطهم بجمعيات سرية مسلحة وبدول أجنبية، حل السلطان هذا المجلس دون إلغائه، وفي 23 تموز سنة 1908 أعاد المشروطية والدستور مرة ثانية فيما سمي (المشروطية الثانية) ويصف النورسي هذا التحول بأنه (الانقلاب السياسي) النورسي، الملاحق، قسطموني، ص 125، راجع بهاء صيقل الإسلام، المناظرات، ص 404، النورسي، سيرة ذاتية، ص 81.

54- في مقدمتهم بهاء توفيق الذي ترجم كتاب (المادة والقوة) للكاتب الألماني بوخنر (Ludwig Buchnai) الذي كان هو ورفاقه في القرن 19 يتخذون التطورات الحاصلة في مجال الفيزياء والبيولوجيا والباليونتولوجيا أساسا لآرائهم، فسعوا إلى الإقرار بأن كل شيء جاء من المادة.

55- توفي عام 1994.

56- أ. د. سليمان خيري بولاي، نظرة بديع الزمان إلى الفلسفة، المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي في إستانبول، تركيا بتاريخ، 24-26 أيلول 1995، نقلا عن براين ماجي، فلسفة العلم ونظرية السياسة عند كارل بوبر، ص 148-149 موقع: www.nursistudias.com

57- انظر مثلا: الكلمات، الكلمة 23، ص 353، النورسي، اللمعات، اللمعة 23، ص 269-277، صيقل الإسلام، محاكمات، ص 127-129.

الجليلة يلزم أن تكون من شأن من هو عليم مطلق العلم وحكيم مطلق الحكمة، بينما سببها جامد من غير شعور، فالآية تفيد بذكر الثمرات والغايات أن الأسباب وإن بدت في الظاهر والوجود متصلة مع المسببات إلا أن بينهما في الحقيقة وواقع الأمر بونا شاسعا جدا، نعم إن المسافة بين السبب وإيجاد المسبب مسافة شاسعة بحيث لا طاقة لأعظم الأسباب أن تنال إيجاد أدنى مسبب، ففي هذا البعد بين السبب والمسبب تشرق الأسماء الإلهية كالنجوم الساطعة[58].

وفى الواقع، طرحت مسألة السببية في الفكر الإسلامي منذ زمن بعيد نجد صداها في مؤلفات أبي حامد الغزالي[59]، وأبي الوليد بن رشد[60] اللذين وقفا موقفين متعارضين إذ ذهب الأول إلى نفي التلازم الضروري بين السبب والنتيجة، مؤكدا أن العادة هي التي ترينا ربطا بين الاثنين، ولعل مما كان يروم تحقيقه بمنزعه ذاك هو التأكيد على قدرة الله المطلقة التي لا يردها قيد ما، وإفساح مجال للمعجزات التي تعنى خرقا للعادة، أما ابن رشد فذهب إلى تأكيد التلازم الضروري بين السبب والنتيجة، ويبدو أنه كان يروم باتجاهه ذاك التأكيد على صفة الحكمة لله ﷻ.

نلاحظ فيما سبق أن النورسي سار على منهج الغزالي ولكنه توسع في تناوله المسألة فناقش قضية التوكل وعلاقتها بالسببية، ونجد خلاصة تصوره في رفعه بعض الالتباسات والظنون التي قد تصاحب تقريراته بشأن الأسباب والمسببات، وذلك في قوله: «ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومدراتها، أما التشبث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي فطلب المسببات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحق ﷻ، وإن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده»[61].

البعد الأنفسي

ومثلما كان الشأن في التفكر الآفاقي فإن التفكر الأنفسي مجلٍ لحقائق الإيمان

58- الكلمات، الكلمة 25، ص 491.

59- توفي سنة 505هـ-1111م، وخاصة في كتابة (تهافت الفلاسفة).

60- توفي سنة 595 هـ-1198م، وخاصة في كتابه (تهافت التهافت) الذي رد به على الغزالي في نقده للفلاسفة.

61- الكلمات، الكلمة 23، ص 353.

ومطية لإدراكها وقد وفرت رسائل النورسي رصيدا كبيرا من (المعرفة الإنسية) قائما على أساس عقدي ومبنيا على تعاليم الوحي تأسيسا.

وبالفعل، يلحظ القاري لرسائل بديع الزمان سعيد النورسي اهتماما كبيرا بقضية الإنسان، فهو وإن لم يكن -على حد علمنا- خصص مؤلفا مستقلا لهذا الموضوع، فإنه تناوله بالبحث في مناسبات مختلفة، تناولا كان مقصودا بالأصالة لا بالعرض، فنراه في بحثه يفصل القول تفصيلا ويتناول الموضوع بشمول، ويؤصل رؤاه في تعاليم الوحي، ويدافع الرأي من الثقافات الأخرى بالاستدلال، وهو في كل ذلك يتعامل مع الإنسان لا باعتباره صورة ذهنية وفكرة مجردة، بل باعتباره الكائن المحسوس الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهو يعتبر أن طريق التفكر الأنفسي أقصر من طريق التفكر الآفاقي[62]، واصفا النتيجة التي يتوصل إليها بالتفكر الآفاقي بأنها قطعية تبلغ مرتبة علم اليقين، بينما يصف النتيجة التي يتوصل إليها بالتفكر الأنفسي بأنها قطعية تبلغ مرتبة حق اليقين[63].

لقد تكونت الموجهات العامة التي وجهت النورسي في بياناته لحقيقة الإنسان تأسيسا على تعاليم الوحي التي كان موصولا بها على حبل متين، فكانت تصوراته منطبعة بتلك الموجهات في ذاتها وفى أسلوبها، بحيث يساعد تبينها على فهم الصورة التي رسمها النورسي للإنسان في أركانها المختلفة.

وفى مقدمة تلك الموجهات أصول العقيدة الإسلامية فيما يتعلق بحقيقة الإنسان، فكان النورسي يتخذ مرجعيته في هذا الموضوع دوما من نصوص القرآن والحديث، منها ينطلق وإليها ينتهي وعليها يؤسس كل بيان، بل كانت أكثر تقريراته في طبيعة الإنسان ومهمة وجوده ومصيره استنتاجات استخرجها من التأمل في آيات قرآنية، فجرت مجرى التفسير لها، وهو ما حفلت به رسائل النور، التي كان في الغالب يصدر كلا منها بآيات قرآنية، ثم ينطلق في شرحها والاستنتاج منها ليبنى على أساسها تصوره لحقيقة من حقائق الإنسان[64].

62- راجع، الكلمات، الكلمة 26، ص 561، المكتوبات، المكتوب 29، ص 597.

63- الملاحق، أمير داغ 1، ص 284-285.

64- راجع، د. النجار، عبدالمجيد، البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي، مؤتمر بديع الزمان النورسي: فكره ودعوته، 1997/6/12، الأردن، موقع www.nursistudias.com

ماهية (الأنا) بين الصورة النبوية والصورة الفلسفية

لقد ظل الإنسان محل تأمل من قبل الإنسان نفسه طوال عصور متعاقبة، ولكن حصيلة ذلك من المادة العلمية شيء ضئيل، وعبر ألكسيس كاريل عن معرفة الإنسان بنفسه بقوله: « وفى الحق، لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل ... وواقع المر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب »[65].

إذا قلبنا النظر في رسائل النورسي لاحظنا أن صاحبها ميز بين صورتين لماهية (الأنا) أو الكينونة الإنسانية وهما الصورة الفلسفية والصورة النبوية وذلك في إطار حديثه عامة عن الفرق بين الفلسفة والدين، فإن في تاريخ البشرية –منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام على الوقت الحاضر– تيارين عظيمين وسلسلتين للأفكار، يجريان عبر الأزمنة والعصور، كأنهما شجرتان ضخمتان أرسلتا أغصانهما وفروعهما في كل صوب وفى كل طبقة من طبقات الإنسانية: إحداهما سلسلة النبوة والدين والأخرى سلسة الفلسفة والحكمة[66].

إن الصورة النبوية لماهية (الأنا) هي أن يعرف الأنا أنه عبد الله، ومطيع لمعبوده، ويفهم أن ماهيته حرفية، أي دال على معنى في غيره، ويعتقد أن وجوده تبعي، أي قائم بوجود غيره وبإيجاده، ويعلم أن مالكيته للأشياء وهمية، أي أنه له مالكية مؤقتة ظاهرية بإذن مالكه الحقيقي، وحقيقته ظلية –ليست أصيلة– أي أنه ممكن مخلوق هزيل، وظل ضعيف يعكس تجليا لحقيقة واجبة حقة.

أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعة شعورية كاملة، لكونه ميزانا لمعرفة صفات خالقه، ومقياسا للتعرف على شؤونه سبحانه[67].

أما الصورة الفلسفية المادية لماهية (الأنا) فإنها تقف في زاوية معاكسة تماما للصورة السابقة إذ « نظرت على (أنا) بالمعنى الأسمى، أي تقول إن (أنا) يدل على نفسه

65– كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص 16.

66– الكلمات، الكلمة 10، ص 639.

67– المصدر نفسه، الكلمة 30، ص 640–641.

بنفسه، وتقضي أن معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه، وتتلقى أن وجوده ذاتي –ليس ظلا– أي له ذاتية خاصة به، وتزعم أن له حقا في الحياة، وأنه مالك حقيقي في دائرة تصرفه، وتظن زعمها حقيقة ثابتة، وتفهم أن وظيفته هي الرقي والتكامل الذاتي الناشئ من حب ذاته »[68].

على أنه ينبغي أن لا نستنتج من كلام النورسي رفضه المطلق للفلسفة أو الحكمة، ذلك أن ما ورد في مواضع كثيرة من رسائله يؤكد أنه يميز في الفلسفة بين قسمين: الفلسفة التي استرشدت بالوحي، والفلسفة التي تعفنت بظلمات الفكر المادي، وعليه فإن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك، لذا لا تتصدى رسائل نور لهذا القسم من الفلسفة.

أما القسم الثاني من الفلسفة، فكما أصبح وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطبيعية، فإنه يسوق إلى الغفلة والضلالة بالسفاهة واللهو.

حيث إنه يعارض بخوراقه التي هي كالسحر الحقائق المعجزة للقرآن الكريم، وإن رسائل النور تتصدى لهذا القسم الضال من الفلسفة في أغلب أجزائها وذلك بنصبها موازين دقيقة، ودساتير رصينة، وبعقدها موازنات ومقايسات معززة ببراهين دامغة، فتصفعها بصفعاتها الشديدة، في حين أنها لا تمس القسم السديد النافع من الفلسفة[69]، فالمطلوب هو تأسيس الحكمة على الدين[70].

68– الكلمات، الكلمة 30، ص 641–642.

69– الملاحق، أمين داغ 1، ص 286–287، وانظر، اللمعات، اللمعة 17، ص 176.

70– يقول النورسي في هذا الشأن: « فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة، ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات ملها حول سلسلة الفلسفة » الكلمات، الكلمة 10، ص 639.

وبالفعل، فإن النورسي قسم أوروبا إلى قسمين، وأكد باستمرار أنه لا يهاجم أوربا التي نفعت الإنسانية بعلومها وصناعاتها، وإنما يهاجم أوربا الثانية بقوله في أسلوب حاد: «اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شلت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون»(71).

الرمزية العقدية للكينونة الإنسانية أو ماهية (الأنا)

أولى النورسي أهمية خاصة للتكوين الإنساني في أبعاده المادية والروحية من بين العناصر العديدة المندرجة ضمن قضية الإنسان، فخصص لذلك حجما كبيرا من تأملاته وتقريراته، وإذا كان تناول هذا العنصر من قبل الباحثين في موضوع الإنسان أمرا مألوفا، فإن النورسي بحث فيه بمنهج يحمل من ملامح الجدة والابتكار ما لا نجده عند غيره إلا عرضا.

تناول النورسي بالبيان عناصر متعددة من تكوين الذات الإنسانية في بعديها المادي والروحي، فإذا هو في كل مناسبة يتعرض فيها بالشرح لحقيقة الإنسان لا يفتأ يتطرق على جانب من جوانب تكوينه في أعضائه الظاهرة والباطنة، وفى غرائزه وطبائعه، وفى استعداداته وقدراته، وفى مظاهر ضعفه وقوته، وفى آماله وأشواقه الروحية، إنه الإنسان المكون من لحم ودم وأعصاب، وروح وعقل ونفس، ذو النوازع والرغائب والضرورات، الذي يؤثر ويتأثر، يحب ويكره، يرجو ويخاف، يطمع ويييأس، يؤمن ويكفر، يعمر الأرض أو يفسد فيها، يحيا ويموت، يتوقف النورسي عند جميع هذه الجوانب فيشرح آيات الخلق فيها ويربط باستمرار بين الآيات التكوينية في طبيعة الإنسان الجسمية والروحية وبين الدلالات العقدية لتلك الآيات، بحيث تعرض كل آية من تلك الآيات في معرض البيان لبعدها العقدي الذي هو مرتبط بها ارتباطا مكينا في أصل الغاية من خلقها، كما هو مرتبط بها في الوظيفة الحياتية التي أنيطت بالإنسان، فيغدو التكوين الإنساني بعناصره المختلفة في منهج النورسي رمزا قيمته ليست ذاته بقدر ما هي فيما يرمز إليه من أبعاد عقدية.

إن الإنسان يشترك مع المخلوقات الأخرى وجوديا أو أنطولوجيا، وذلك بانتماء الجميع إلى طرف مشترك من طرفي الوجود وهو الطرف الناقص المحتاج، وذلك من

71- اللمعات، اللمعة 17، ص 177.

حيث المأتى وهو خلق الله ﷻ الذي يسري على الكون كله[72].

والمصير وهو الرجوع إلى الله ﷻ[73]، غير أن هذا الاشتراك لا يدل على تساو قيمي بين الإنسان والكائنات الأخرى، فهو مستعل عليها تكوينيا[74] ومعرفيا[75]، وهو يحمل هذه القيمة لسر التوحيد الكائن فيه، يفقدها بعدمه، وهذا ما حرص النورسي على بيانه في كثير من المواضع في رسائله، مثل قوله: «نعم، عن الإنسان بسر التوحيد، صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات، وهو أثمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوي الحياة ومخاطب رب العالمين وأهل ليكون خليله ومحبوبه حتى عن جميع المزايا الإنسانية وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد وتتحقق بسر التوحيد، فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما»[76].

فالصورة النبوية للإنسان كما رسمها النورسي تبرز هذا المخلوق في حالة عجز وفقر، فهو عاجز بالنظر إلى ما يكتنفه من أعداء لا حد لهم، وما يعترضه من أنواع البلايا والمصائب وهو فقير لعجزه عن تحقيق حاجاته التي لا حدود لها، وهو بهذا الاعتبار يتحرى دائما مرتكزا يرتكز عليه ومستند يستنداً إليه، كما أنه مضطر إلى تحري

72- قال الله عز وجل ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: 2].

73- قال الله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

74- وذلك لتكوينه الجامع بين المادة والروح، والوضع القطبي الذي تبوأه آدم عليه السلام بالنسبة إلى الموجودات الكونية في قوله عز وجل ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 28-29]، فأصبح الإنسان بهذا التكوين المزدوج «من حيث إنه صغر شكله وجمع فيه قواه، هو كالمختصر من العالم» الأصفهاني، الراغب، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تح. عبدالمجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 76.

75- يتمثل ذلك فيما خص به الإنسان من استيعاب معرفي للكائنات، فأصبح هذا الكائن الصغير يحمل في ذاته ذلك العالم الكبير، وقد تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في بحث لنا بعنوان (علاقة الإنسان بالكون في البنية الإسلامية).

76- الشعاعات، الشعاع 2، ص 18. يقول مصورا حالتي الإنسان: «عن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبة إليه، فالإيمان إنما هو انتساب» الكلمات، الكلمة 23، ص 348، وانظر، الكلمة 23، ص 352، 354، 371، الكلمة 30، ص 635.

نقطة استمداد يستمد منها حاجاته التي لا تتناهى ويسد بها فقره الذي لا يتناهى ويشبع آماله التي لا نهاية لها، ويؤكد النورسي هذه المعاني بقوله: « أمعن في الوجدان لترى كيف أنه برهان مودع في نفس كل إنسان يثبت التوحيد، ولتشاهد أيضا أن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة على أرجاء الجسد، فالعقيدة الحياتية فيه -وهي معرفة الله- تلائمه، فتقطر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة وأهمية، بل تبسطها وتصقلها، فهذه هي نقطة الاستمداد والمعرفة الإلهية نفسها هي نقطة استناد للإنسان أما تقلبات الحياة ودواماتها وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه »[77]. وهكذا يتم إثبات وجود الإله ووحدانيته.

ولكن ما يثبت وجود الله ﷻ ووحدانيته لا تنحصر في النظر إلى الوجدان الإنساني وما ينطوي عليه من مكونات باطنية، وإنما يثبت الوجود والوحدانية أيضا ما يظهر من تكوين الإنسان من الناحية المادية فيخاطب النورسي الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم لإدراك هذه الحقيقة بقوله: « تأمل فيما يحويه جسمك وأعضاؤك أيها الإنسان من حدود متعرجة والتواءات دقيقة، وتأمل في فوائدها ونتائج خدماتها، وشاهد كمال القدرة في كمال الحكمة »[78].

والواقع أن النورسي ينطلق من التركيبة الإنسانية المادية والروحية للوصول إلى نتائج عقدية ذلك أن التركيب الإنساني الذي أودع فيه من عظيم القدرات ووفير الطاقات ولطيف الأسرار ودقيق الآلات ينبئ بأن هذه المكونات جميعها أعدت لغايات أسمى وأنيطت بعهدة الإنسان مهمة جسيمة هي مهمة الخلافة، وحيث كانت الخلافة هي المهمة التي تقوم على العبادة، فهذه أيضا غاية عليا هيئ الإنسان في تركيبه لإنجازها، وإن فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلان على أنه مخلوق للعبادة[79]، وإن فطرة الإنسان هي التكمل بالتعلم والعبودية لله ﷻ لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس الدعاء بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ومخها[80].

77- المثنوي، ص 431، راجع، المصدر نفسه، ص 363، الكلمات، الكلمة 23، ص 355، الكلمة 33، ص 829، الشعاعات، الشعاع 2، ص 18.

78- الكلمات، الكلمة 33، ص 794.

79- المصدر نفسه، الكلمة 5، ص 20.

80- المصدر نفسه، الكلمة 23، ص 355، وانظر، المثنوي، ص 363.

والإنسان مرآة لتجليات الأسماء الحسنى فما وهب من نماذج من الصفات الجزئية من العلم، والقدرة والبصر والسمع والتملك والحاكمية وأمثالها من الصفات الجزئية هو بمثابة مرآة تعكس الصفات المطلقة لله ﷻ وتركيب الإنسان في بنيته الظاهرة والخفية تأكيد على أن تلك البنية الدقيقة الصنعة إنما هي المجلي الأعظم للصنعة الإلهية والمعرض الأكبر لصفاته ﷻ وأسمائه الحسنى فالله ﷻ أحسن كل شيء خلقه ولكن أعظم درجات حسنه إنما هي تلك التي ظهرت في تركيب الإنسان، حتى غدا هذا التركيب أعظم درجات التجلي لصفاته ﷻ(81).

إن التأمل الدقيق في التكوين الإنساني في بعديه المادي والروحي يفضي إلى يقين بأن هذا التكوين ليس للحياة الدنيا فقط، بل يمتد إلى آماد أخرى من الحياة، وقد اهتم النورسي ببيان هذه الحقيقة جاعلا البعث في الحياة الأخرى بعدا من أبعاد التكوين الإنساني، وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: من جهات دلالة التكوين الإنساني على الحياة الأخرى ما ركب عليه الإنسان من أجهزة مادية وروحية، ومن استعدادات وقدرات، فهذه تبلغ في التركيب الإنساني من دقة الصنعة وإتقانها، ومن القدرة على العطاء والكفاءة في الأداء، ما تتجاوز به آمادا بعيدة حاجات الإنسان ومطالبه في حياته القصيرة «فإن ما في هوية قلب الإنسان من لطائف، وما في دفتر عقله من حواس، وما في فطرته من أجهزة وعتاد متوجهة جميعا ومعا إلى السعادة الأبدية، بل ما منحت له إلا لأجل تلك السعادة الأبدية»(82).

إن هذه المقدرات الواسعة دالة قطعاً على وجود حياة أخرى، وعلى أن الإنسان بتكوينه المادي والروحي معد لتلك الحياة، فيصرف جزاء من طاقاته الهائلة في تحقيق المطالب الدنيوية المحدودة، ويصرف ما زاد على ذلك لتلبية مطالب أخرى تقتضيها الحياة الباقية، يقول النورسي في هذا السياق: «كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ورباه أحسن تربية، وزوده من الأجهزة والأعضاء – كالعقل والقلب– ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها ويدرك كذلك مدى الظلم والقسوة إذا ما انتهى مصير هذا الإنسان المكرم إلى العدم الأبدي، ويفهم كذلك مدى البعد عن الحكمة في عدم البعث الذي يجعل جميع الأجهزة والقوى الفطرية –

81– راجع، الكلمات، الكلمة 33، ص 829.

82– المصدر نفسه، الكلمة 10، ص 59.

التي لها آلاف المصالح والفوائد- دون جدوى ودون قيمة، في الوقت الذي أودع سبحانه مئات من الحكم والفوائد في دماغه فحسب»(83).

الجهة الثانية: من جهات دلالة التكوين الإنساني على الحياة الأخرى تتعلق بما أضمر في النفس البشرية من الآمال والأشواق والمطالب الروحية، فالإنسان ينطوي على شوق للبقاء ولا يلبي منه العمر إلا شيئا قليلا، وينطوي على تطلع للسعادة، ولا يتحقق منها في هذه الحياة الدنيا إلا الشيء القليل وقد لا يتحقق منها شيء، فهذه المقدرات الواسعة من آمال الإنسان وأشواقه التي لا تتحقق في الحياة الدنيا تحمل في ذاتها دلالة على حياة الخلود ويبرز النورسي هذه المعاني في مواضع كثيرة في رسائله، ومن ذلك إشارته إلى أن «حقيقة الإنسان وكمالاته وحاجاته الفطرية وآماله وحقائقه واستعداداته تتطلب النتائج والفوائد المذكورة للإيمان بالآخرة، وتدل قطعا على الآخرة وعلى الجنة وعلى لذائذ مادية محسوسة باقية، وتشهد على تحققها»(84).

خاتمة

كان النورسي متفاعلا مع الكون بكل أبعاده، متأثرا بمظاهره وأحيائه، يرى المنظر فيترك في فكره ونفسه أعظم الأثر، فجعل الكون والطبيعة شهب أدلة للملحدين وأنوار هداية للراغبين، إنه كان يرى في سياحته الكونية وتقلبه في أحضان الطبيعة، في ليلها ونهارها، وفي ظاهرها وباطنها، أن هذا الكون شجرة متناسقة تؤدي وظيفتها بدقة وإتقان، وهو قصر منيف لضيافة ذوي الأرواح وخاصة الإنسان، ويدل على الكبير المتعالي.

وخصص النورسي -في سياق حديثه عن الكون- مساحة شاسعة للبحث الإنساني فقدم في هذا الباب مادة جديرة بالاعتبار، وهو في تناوله لهذا المحور تجاوز الأطروحات التقليدية للنفاذ إلى الدلالات العميقة للتكوين الإنساني في بعديه المادي والمعنوي، فكان -بصنيعه ذاك- مناقشا بارعا للفكر المادي المحض الذي درس الإنسان بمعزل عن دلالته العقدية.

83- الشعاعات، الشعاع 11، ص 268-269.

84- المصدر نفسه، الشعاع 11، ص 286، وانظر، المثنوي، ص 232، الكلمات، الكلمة 10، ص 128، يقول في الشعاعات: «مادام جميع لذائذ الدنيا لا تشبع الخيال الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية، فلابد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جدا مرتبطة فطرة بالخلود والبقاء»، الشعاع 11، ص 278.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم، رواية حفص عن نافع.
2. البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبدالباقر عطار، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ-1994م.
3. الجرجاني، على بن محمد، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.
4. الحكيم الترمذي، محمد بن على، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.
5. أ. د. سليمان خيري بولاي، نظرة بديع الزمان إلى الفلسفة، المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي، المنعقد بإستانبول بتاريخ 24-26 أيلول 1995م.
6. السيوطي، عبدالرحمن، الجامع الصغير، تحقيق محمد عبدالرؤوف المناوي، دار طائر العلم، جدة، د. ت.
7. د. الصالحي، إحسان قاسم، الرجل والإعصار: سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ-2008م.
8. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، د. ت.
9. القضاعي، محمد بن سلامة، مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407هـ-1986م.
10. كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، د. ت.
11. المناوي، محمد عبدالرؤوف، التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1410هـ.
12. د. النجار، عبدالمجيد، البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي، مؤتمر بديع الزمان النورسي المنعقد بالأردن بتاريخ 1997/6/12م.
13. النورسي، كليات رسائل النور، ترجمة د. إحسان قاسم الصالحي، في قرص مضغوط وهي تضم المؤلفات التالية:
    - الكلمات
    - المكتوبات
    - اللمعات
    - الشعاعات

- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز
- المثنوي العربي النوري
- الملاحق: ملحق بارلا، وملحق قسطموني، وملحق أمير داغ
- صيقل الإسلام: محاكمات عقلية، وقزل إيجاز، وتعليقات، والسانحات، والمناظرات، والمحكمة العسكرية العرفية، والخطبة الشامية، والخطوات الست.